

## كلمات مفقودة

كل من لديها طفل عمره ما بين عام ونصف وثلاثة أعوام تعرف مرحلة العض والضرب والصفع جيداً! فجأة وبدون مقدمات يصفع الطفل وجه أمه أو أبيه أو طفل آخر! فجأة يجذب الطفل الشعر! فجأة ينهال الطفل على شخصٍ ما عضاً وقرصاً! فجأة تنهال عليه الأيدي الصغيرة بضربات مؤلمة للغاية! هذه مرحلة يمر بها جميع الأطفال ويشكو منها الأمهات. عادة تنتهي هذه المرحلة تدريجياً حتى تنتهي تماماً مع نهاية العام الثالث. هناك سببان أساسيان لهذه المرحلة، الأول هو الحاجة للاهتمام والثاني هو الرغبة في التعبير.

لأسباب مرتبطة بالبقاء، حُلق الرضيع صارخاً باكيًا ملحاً في طلباته، ويستمر في التعبير عن نفسه بكل وقاحةٍ كما يسميها الكبار. حتى يتمكن من حماية نفسه بالجري والاختباء، ومن البحث عن طعام له. لولا هذه الصفات لمات الرضيع بسبب السهو والإهمال. هكذا تعلمنا أن الطفل أقل من ثلاث سنوات كائن أناني من الدرجة الأولى، هو محور الكون والكل مسخر لخدمته وللترفيه عنه وللاستجابة إلى طلباته. في هذا السن لا يفهم الطفل أن فلاناً مرهق أو مشغول أو يعمل أو يرتاح أو حزين أو غيرها من المشاعر البشرية الطبيعية.

قد ينظر الطفل إلى أمه فيراها حزينة، سوف يدرك حزنها ولكنه لن يعرف كيف يتركها لحالها أو كيف يلعب بعيداً عنها أو كيف يراعي مشاعرها، لأنه بكل بساطة سوف يصر على حقه في الاهتمام واللعب والترفيه، سوف يصفعها حتى تنظر له!

أما بالنسبة لقدرة الطفل على التعبير في هذه المرحلة، فهي قدرة محدودة للغاية! معظم الأطفال لا يتحدثون في عمر عام ونصف ومن يتحدث قليلاً في عمر عامين لا يمكنه استخدام كلماته للتعبير عن نفسه.

كيف يقول طفل لأمه «انظري لي والعبي معي»؟ يضرها!  
كيف يقول طفل لأبيه «من فضلك اترك هاتفك وتكلم معي»؟ يصفعه  
كيف يقول طفل لجدّه «أنا سعيد جداً بزيارتك وهيا بنا نلعب»؟ يعضه  
كيف يقول طفل لطفل آخر «هذه لعبتي، لا تأخذها»؟ يصفعه ويعضه  
هكذا يعبر الطفل في مرحلة ما قبل الكلام عن نفسه.

السؤال الآن هو: ماذا تفعلون حتى تمر هذه المرحلة بسلام؟

أولاً: تفهموا دوافع الطفل وتجنبوا إثارتة! لا تتجاهلوه ولا تشغلوا بغيره، وإذا اضطرتهم للنظر إلى الهاتف مثلاً، استأذنوه واشرحوا له أسبابكم.

ثانياً: ساعدوا الطفل بالكلمات. قولوا له إنكم تفهمون أسباب غضبه، واسألوه: «إنت غاضب لأنني تركتك؟» أو «هل تشعر بالملل؟» أو «هل تريد أن نلعب معاً؟»

ثالثاً: الحقوا البلاء قبل وقوعه، الحقوا اليد الصغيرة قبل أن تصفع أو تضرب. أمسكوها بحسم وقولوا للطفل إن الضرب ممنوع ثم قبلوا يده.

رابعاً: لا تتركوا الأطفال يلعبون وحدهم بدون إشراف! إذا كان طفلكم يتحدث فسوف يضره من لا يتحدث، وإذا كان طفلكم لا يتحدث فسوف يضرب الجميع.

خامساً: لا تضربوه! كيف تعلمونه ألا يضرب وأنتم مثله الأعلى في الضرب؟

سادساً: ملابس الموقف، الطفل الجائع أو المرهق أو النعسان أو المتألم أكثر عرضة لنوبات الضرب والصفع والعص.

سابعاً: امنعوا السكريات والحلويات وكل ما هو مليء بالمواد الحافظة! هذه المنتجات ومكوناتها تؤثر على كيمياء المخ بصورة مباشرة وتفقد الطفل القدرة على التحكم بنفسه.

ثامناً: راجعوا ما يتلقاه الطفل من خلال الشاشات من حوله، الإعلانات والمسلسلات والبرامج الإخبارية غير مناسبة للأطفال.

تاسعاً: تذكروا أن الطفل أقل من سنتين لا يجب أن يتعرض للشاشات والحد الأقصى للطفل بعد عامين هو نصف ساعة متفرقة.

عاشراً: تأكدوا أن طفلكم ليس ضحية عنف قبل أن تتهموه بالعنف.

أما أنا، فقد كانت تجربتي مختلفة! فلنتخيل معاً الراديو، لتسمعوا الإذاعة واضحة جلية، يجب أن تضبطوا الموجة. أنا و«آدم» كنا على نفس الموجة دائماً وكأن الحبل السري لم ينقطع. كنت أشعر به قبل أن يجوع، فأرضعه. كنت أنظر لوجهه، فأعرف فيما يفكر وكنت أرى إلى ماذا تشير أصابعه، فأفهم كيف أشبع فضوله. كنا مضبوطين على موجة واحدة. بدأت مرحلة العض والضرب والصفع ولكنها انتهت سريعاً. بدأت كلعبة وانتهت حين شعر «آدم» أنني لا أحب لعبته تلك.

تنتهي هذه المرحلة، في حالة الطفل الذي ينمو نمواً طبيعياً، بانتهاء العام الثالث. لكن في حالة الطفل المتأخر لغوياً، الطفل الذي يفهم كل شيء يقال له ويعبر عن نفسه بالإشارة وبلغه الجسد لأنه لا يعرف كيف يحرك لسانه وفكه ليخرج كلمات مفهومة، تبدأ هذه المرحلة من بعد الثالثة إذا لم يذهب إلى الحضانة مثل «آدم». كما حكيت لكم، لقد صعب عليّ «آدم» من المصير الذي سيواجه في الحضانات، فعزفت عن الفكرة، ولتوفير بيئة اجتماعية ثرية، كنا نذهب إلى النادي كثيراً ونخرج مع العائلة والأصدقاء.

في البداية، كان «آدم» يخاف من الأطفال. كان يخاف من صوتهم المرتفع وحركتهم السريعة وتصرفاتهم المبالغية. كان يهرب منهم ويتجنبهم. لم أجبره. لقد كنت حقاً أرى الدنيا من منظوره، كيف لطفل بقدراته المحدودة حماية نفسه من مثل هذا الخطر إذا اضطر لمواجهة؟ فبدلاً من إجباره على التواصل معهم، كنت أفترش الرمل مثله وألعب معه بالجاروف والجردل والماء. إذا مر طفل توسمت فيه حسن التربية، دعوته إلى اللعب معنا. كنت ألعب معهم وكأنني

طفلة أكبر قليلاً، أشرح لهم المشروع، أرسم الخطة، أوزع الأدوار، وأفرح بالإنجازات. هكذا علمت «آدم» كيفية التعارف على الأطفال وكيفية اللعب معهم.

لم يكن الأمر بهذه البساطة، بعمر ثلاث سنوات، كان «آدم» لا يقول سوى عدد بسيط جداً من الكلمات ولم يكن اسمه من بينها بعد. كان من الصعب عليه أن يطلب من طفل أن يلعب معه، فكان يجذبه ليجلس. قد يقع الطفل وقد يستاء وقد يشعر بالغربة. أغلب الأوقات كنت أنا أقوم بالكلام بدلاً منه. عندما أصبح «آدم» في الرابعة من عمره، تحسن كلامه وأصبح يقول جملاً، ولكن كلامه غير مفهوم على الإطلاق! في هذه المرحلة، لم يفهم كلام «آدم» سواي وبعض أفراد عائلتي. كنت أعمل مترجمة بدوام كامل.

استمر تحسن «آدم»، ولكن ظلت لغته غير مفهومة لمن لا يعرفه. أحياناً، كان ينفر منه الكبار وأحياناً كان ينفر منه الصغار، ودائماً كنت أنا صديقتة التي تفهمه وتتفاعل معه. لكن بسبب هذا التأخر اللغوي، تأثرت قدرات «آدم» الاجتماعية سلباً. كنت أرى نموذجاً مصغراً لإنسان الغاب، يرى ولدًا، يريد أن يقول أهلاً، فيخبطه في صدره أو يدفعه بيديه. يريد أن يلفت نظر فتاة ما، يحمل كرسي من كرسي النادي فوق رأسه ويسير به وهو ينظر لها بفخر. يريد أن يقول لولد أن يتسلق معه الشجرة، يأخذ طوبة ويقذفه بها، ثم يشير إلى الشجرة ويبدأ في التسلق على أمل أن ينضم له الولد.

كنت أراقب ولا أتدخل إلا في حالات الخطر. كنت أحاول أن أعلم «آدم» الجمل التي يجب أن تستخدم في هذه المواقف، ولكن للأسف قدراته لم تسعفه. ثم بدأت مشكلة جديدة! مشكلة الصراخ! الصراخ أسهل من الكلام المحشور بين الفك واللسان! إذا كان «آدم» مثلاً، يحفر حفرة في الرمل، وانضم له ولد آخر وبدأ يحفر في اتجاه مختلف أو بدأ يردم الحفرة، يبدأ «آدم» في الصراخ! «آدم» يريد أن يقول إنه يعمل! يريد أن يقول إن للحفرة هدفاً! يريد أن يقول احفر معي ولا تفسد عملي! لكنه لا يقول! لا يسعفه لسانه!

في رحلتي مع «آدم»، عشت متعة لم أعشها من قبل، واختبرت ألماً لا أجد له وصفاً. في مكان ما، في معدتي وبين ضلوعي، يأتيني هذا الألم الذي لا هو وخزاً ولا هو مغصاً. إنه نوع من الألم الذي يشبه بقعة الخبر، يبدأ مركزاً في بؤرة ما، ثم ينتشر ويتوغل في كل الاتجاهات

في نفس الوقت \_ حتى يصل إلى رأسي وذراعي ورحمي وساقِي\_ فأشعر بالدوخة ويختل توازني ولكنني لا أسقط ولا أموت! أحياناً يتكثف الألم في أذني، فأسمع طنيناً، وأحياناً أخرى يتكثف في حلقي، فينغلق وأكاد أختنق بِرِيقِي.

لم يكن الألم هو الإحساس الوحيد الذي يتمكن مني في مثل هذه المواقف! الغضب، رفيقي القديم، يزأر في رأسي كثيراً. هذا الزئير المألوف الذي يقلق منامي ويعكر صحوي. هناك أيضاً الذنب. الشعور بالذنب كذئب جائع ينهش في قلبي ومقلتي فيترك الأول دامي والثانية باكية نادمة تائبة. زئير غضبي ليس موجهاً إلى أحد بالتحديد ولكنه يشمل الجميع، يزأر الغضب في وجه «آدم» وفي ظهر أبيه وفي مرآتي وتجاه السماء! أما ذئب الذنب، فينهشني وحدي في خلوتي حتى لا أجد من يغيثني أو يوقف نزيفي. يتركني الذنب فريسة سهلة للخوف، الخوف من الفقد، الخوف من زوال النعمة، الخوف من خواطري، أخاف أن يموت «آدم»!